وإياكم أن تظنوا أن الله خلق لكم ، ثم خلق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ[1] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله[2] .

---

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة .

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون في المعاصي ويخشون ألا يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : «يُرْجَعُون» ومرة يقول : «يَرْجِعون»[1] ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ﴿٤﴾﴾ . [يونس]

وسمّى هذا المرجع في نفس الآية : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ﴿٤﴾﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذي سيأتي بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصي لن يرى في الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصي وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره في المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعداً . والصيغة التي يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهي تعني تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾﴾ . [الفاتحة]

إذن: فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصي أن يراجع نفسه قبل أن

---

(١) ورد قوله تعالى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ في ستة مواضع من القرآن الكريم: في آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والنور (٦٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .

* أما قوله سبحانه : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة : [البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ، [الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥] ، [النمل : ٢٨] ، [الروم : ٤١] ، [السجدة : ٢١] ، [يس : ٣١ ، ٥٠ ، ٦٧] ، [الزخرف : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف : ٢٧] .

(٢) يدعّون: يُدفعون دفعاً عنيفاً . والدَّعّ: الطرد والدفع . قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً.

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشيء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك فى بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة.

وسبحانه يقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [1] رَّابِيًا [2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر تجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، تجد القشّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة.

(١) الزَّبَد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجُه . وبحر مُزْبِدٌ أى : مائج يقذف بالزَّبَد . وزَبَد الماء : طفاوته وقذاه . والجمع : أزباد.
(٢) رابياً : مرتفعاً ، لأنه يكون أعلى سطح الماء.
(٣) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزَّبد والوسَخ ونحوهما.

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تتنقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطْعِمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ[1] جَمِيعًا ﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ، وممَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد أن تكون

(1) مادة : رجع من باب ضرب - يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ ... (١٥٠) ﴾ [الأعراف] . أى : عاد ، ومن المتعدى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... (٨٣) ﴾ [التوبة] . أى : أعادك وردك ، ومن المعنوى قوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ... (٤) ﴾ [الملك] - القاموس القويم حـ ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

على شىء ثم تفارق هذا الشىء وبعد ذلك ترجع له ،فهى وجود أولاً، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول . فإذا كنت فى مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع.

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾. [ق]

كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ . [السجدة]

أى: أنهم تساءلوا: هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان[2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور[3] ؟

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ليفيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على

---

(١) ضللنا فى الأرض أى : ذهب أثرنا فى الأرض وخفينا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد . قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود] أى : أجساداً ملقاة فى الأرض .

(٣) النشور : بَعْث الموتى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] أى: أحياه وبعثه . وقال : ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ومنه يوم النشور : يوم القيامة .

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها، ويحكى عنهم القرآن قولهم: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس] .

الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث .

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبين لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر[1] ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا..﴿٤﴾﴾ [يونس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ، أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل :

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا[2] بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد : أيظن ابن آدم أنه يخلى مهملاً فلا يؤمر ولا ينهى . وقيل : أيحسب الإنسان أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث . ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٧١٥٢) .

(٢) عيَّ الإنسان بأمر : عجز عنه .

(٣) اللبس : اختلاط الأمر ، والشك .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [1] ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ... ۝٥ ﴾ [الحج]

أي: أرضاً ميتة وليس فيها أي حياة.

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [2] وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾ [الحج]

إذن: فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة. والحياة التي تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر.

وخذ مادة واحدة وهي المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد في حياته أيّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هي ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه.

إذن: فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذي يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هي

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات واعتراضات نشأت في عقولهم عن استحالة البعث بعد الموت واعطوا أمثلة ظنّوها تؤيد تكرهم السقيم منها : من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة ، وهي شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة في أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية ، أي: أن الله ليست له قيومية على كونه . وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذي يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذي لا يخرج عن قدرته شيء . وما دام الله قد خلق الكون من عدم ، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه ، ويقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧ ﴾ [الروم] . ويقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ ﴾ [البقرة] .

(٢) ربَتْ : عظُمت وانتفخت وزادت.

تقطير [1] للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [2] لتعود مياهاً من جديد.

إذن: فالماء له دورة ، تروى منه الزرع ، فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته فى عملية النتح [3] ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضر كوباً من الماء المقطر فى الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث فى الكون ملايين المرات ، ولا يدرى بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطرة. ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقى (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذى يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه فى حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر.

(1) التقطير: تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير: تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط).
والبخار: كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء: تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار.

(2) التكثيف: هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(3) نتح: رشح ، يقال: نتح العرق من الجلد ، ونتح الإناء بما فيه ونتحه الحرّ ، ونتح الماء من النبات نتحاً أى: خرج منه الماء الزائد عن حاجته. [المعجم الوسيط «بتصرف»].

إذن: الكمية التى خلقها الله من المياه كما هى، لم تَزِدْ ولم تنقص، تدور الدورة التى شاءها الحق، وهكذا نرى أن الشىء يعود إلى أصله مرة أخرى، ويمكن أن نرى ذلك فى كل أوجه الحياة، والحق سبحانه يقول:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا [1] (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التى تحمل السحاب، وتقطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء، الذى هو قوام الحياة، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمَّل الوردة، تجد لها نعومة ونضارة؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى، وكذلك الرائحة تظل فى أوراقها الذابلة إلى أن تنتهى، وكذلك اللون، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن: حياة كل كائن فى الوجود والعالم فى حركته ناشئة عن هذه الدورة، فإذا كانت مائية حياتكم تدور؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

(١) الذاريات: الرياح. ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذرواً: أطارته وأذهبته. قال تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (٤٥)﴾ [الكهف] والحاملات وقراً: السحاب. والجاريات يسراً: السفن. والمقسمات أمراً: الملائكة. وقد ثبت عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة، فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾ قال على رضى الله عنه: الريح. قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢)﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)﴾ قال: السفن، قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾ قال رضى الله عنه: الملائكة. [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٣١].

لتصير تراباً . فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز.

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر . فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء.

واقرأ القرآن بتبصر تجد قول الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق]

وهكذا يبيّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوّن الكائنات[1] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكمّ لكل عنصر.

وقال العلماء: إن الستة عشر عنصراً هي: الأوكسوجين، والكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين، والمغنسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، وغيرها.

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل.

هكذا يصدق قول الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ... (٤)﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا: هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً ، وما دام القرآن خالداً لمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي وروده انتفاع نحو المراد بقول الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف].

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن: فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول: أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء. انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة في الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد في الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف. وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر.

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التي في الأرض تكفي كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت في كيفية تكوين الكائنات.

مثال ذلك: أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هي القاعدة التي يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة.

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوي – في الكمية – ما يأكل ويشرب لَمَا كبر. ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوى

ما يدخل إليه ، ثم تأتى الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعنى أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة .

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [1] استطاع أن يعلم الداء الذى يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [2] ومعها ما فُقِد من الوزن ، وتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء .

إذن : فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتى بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقديّاً [3] وعقليّاً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله فى المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذى لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [4] ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

(١) الحذق : المهارة فى العمل . تقول : حَذَقَ فلان فى عمله فهو حاذق ماهر .

(٢) مادة : عفا تقرل مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عفواً وعُفُواً وعفاءً . أى : درس ، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً . ومنه : عفا الله عنك أي : محا ذنوبك ، وعفوت عن الحق : أسقطته - وعافاه الله محا عنه الأسقام . والعافية اسم منه ، وهى مصدر جاء على فاعلة كناشئة - المصباح ص ٤١٩ .

(٣) عقدىّ : نسبة إلى العقيدة ، والعقيدة : صيغة مبالغة من العَقْد . والعقد : العهد والإيمان . والعقيدة : الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . والعقيدة الدينية : يقصد بها الإيمان والاعتقاد فى الدين ، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل . والعقيدة الإسلامية هى الاعتقاد بصحة الدين الإسلامى وصدقه .

(٤) يكبح شهواته : يتحكم فيها فلا تطغى عليه ، وهذا كالرجل للمسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه وتفلت من قيادها . (لسان العرب مادة ك ب ح) .

عبث [1] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج.

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... (٤) ﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط [2]. والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء. ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القَسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ؛ والقَسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق:

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذي يثاب به الطائع ويجازى به العاصي ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية].

(٢) قسط : من أسماء الله تعالى الحسنى «المُقْسِط» : هو العادل. يقال : أقسطَ، يُقْسِط، فهو مُقْسِط إذا عَدَلَ. والقسط والإقساط : العدل. يقال: أَقْسَطَ وقَسَطَ إذا عدل. قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١٥٢) ﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (٣٥) ﴾ [الإسراء] وهو أقوم الموازين وقال عز وجل : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات].
ومن معاني القسط أيضاً: الحصة والنصيب ، والميزان ، والمكيال. وقَسَّط الشيء: فرّقه وقسّمه.
أما القَسْط والقُسُوط فهو الجور والعدول عن الحق. [اللسان : مادة (قسط)].

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[1] (١٥) ﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين: الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ [المائدة]

والمقسطون: هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قِسْط» و«قَسْط»، وهناك شيء اسمه «قَسَط»[2] بالفتحتين وهو الانحراف في الرِّجلين. إلا أن المستعمل في كلمة «قِسْط» هنا مقصود به العدل، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملت في الجور. وهي مأخوذة من القَسْط لا من القِسْط، وتجد من أسماء الله «المُقْسِط»[3]، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل، أي: ابتدأ بالعدل أولاً، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط؛ لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل.

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: جزاء منه بالعدل، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم؛ لأنهم عدلوا في العقيدة؛ لأن القرآن الحكيم - كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأفعال

(١) الحطب: ما أعدَّ من الشجر لإشعال النار. والمراد أنهم سيكونون في عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله في جهنم بمثابة الحطب للنار؛ زيادة في عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) القَسَط: عيب في الرِّجل، والرِّجل القَسْطاء هي التي في ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان: مادة (قسط)].

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران]، وهو من صفات الأفعال، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠١) وابن ماجه في سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾. [لقمان]

إذن: فهم بعدلهم وبقسطهم في أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذي هو ظلم عظيم [1] ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدي الطويل ، وهم لم يظلموا الناس. ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم.

وقد يقال: إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء [2] ، هذا هو عدل الله بالتشريع. أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل في هذه الآية. ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام في قول الله سبحانه:

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ : «إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] إنما هو الشرك». أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢) وأحمد في مسنده (١/ ٣٧٨).

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضي أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلت أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة». أخرجه مسلم في صحيحه (١٣١) وأحمد في مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد. ومن دعاء العارفين : اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم]

فقال بعضهم: إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة[1]؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية، لا فرض عين[2]؟

ونقول: إن وجود اللام في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ يفيد الملك، أي: الحق، والآية تعطي الحق ولكنها لم تمنع الفضل، أو نقول: هل نصلي على كل ميت؟ نحن نصلي على الميت المؤمن، والإيمان من عمله، وهو يُجازى بصلاتنا عليه، أي: جزاء عمله.

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح.

إذن: فالقسط هنا تعود على قسط الله، وهو العدل، وكذلك قسطهم هم؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل. أما الكافرون، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق، قال شمس الحق في شرحه لسنن أبي داود (٨/٣٤٤): «لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه».

ومن الأدعية المأثورة الواردة في هذا ما ذكره أبو هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة، يقول: «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده». أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٦٨).

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع. أما فرض العين: فهو الفرض الذي يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها في حق آحاد المسلمين.

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم.

وكلمة ﴿حَمِيمٍ﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهي مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ (1) يَشْوِى الْوُجُوهَ... ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

و﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: أنه يغلي ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ، فالنحاس مثلاً حين يغلي تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (2) ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ (3) ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان]

---

(1) المهل: النحاس المذاب أو الزيت المغلي. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج]. [اللسان: مادة (مهل)]. ومن معاني المهل أيضاً: الماء المختلط مثل دردي الزيت. وقيل: هو كالدم والقيح.

(2) الزقوم: طعام أهل النار. قال ابن سيده: لما أنزلت آية الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش، فقال أبو جهل: إن هذا الشجر ما ينبت في بلادنا، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية: الزقوم بلغة إفريقية: الزبد بالتمر، فقال أبو جهل: يا جارية، هاتي لنا تمراً وزبداً نزدقمه، فجعلوا يأكلون منه ويقولون: أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة؟ فبيّن الله تعالى ذلك في آية أخرى، فقال في صفتها: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات]. وقال الأزهري: افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركي مكة، فقال أبو جهل: ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد، فقال لجاريته: زقّمينا. وقال رجل آخر من المشركين: كيف يكون في النار شجر، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء] أي: وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار. ومن معاني الزقوم: كل طعام يقتل، والزّقمة: الطاعون. [اللسان: مادة (زقم)]

(3) قال الفراء: الأثيم الفاجر، وقال الزجاج: عُني به هنا أبو جهل بن هشام، والأثيم صيغة مبالغة من الإثم، أي: كثير الذنوب. [اللسان: مادة (أثم)].

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإن نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهى تعنى أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور: الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ۝٦﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب فى حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهى تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهى لا تنجسه ، فإن اغتسلت فيكفى أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقى بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتى بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّي المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

---

(١) الإحداث: خروج شيء من أحد السبيلين من فساء أو ضراط أو براز وبول. وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة.

(٢) التيمم فى اللغة هو القصد. وفى اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يُسمّى الله تعالى ، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر ، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه ، ولا يعفر به وجهه.

إذن: هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة . ونأخذ منه الحمام ، إذن: مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة [1] وفيها السخونة .

ويقول الحق هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا ؟ إنها تصعيد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطِّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [2] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ [3] الشَّرَابُ ... (٢٩)﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ .

إذن: فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم. وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) حم الماء يحم حماً من باب فرح . قال تعالى : ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ .. (٧٠)﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والفعل معاً ويطلق الحميم : على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء] .

(٢) يستغيثون: يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش؛ فيأتيهم الغوث (العون) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت المغلى يحرق وجوههم . وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وذنوبهم وآثامهم فى الدنيا. [اللسان : مادة (غوث)].

(٣) بئس : كلمة تطلق على كل ما يستحق الذمّ الشديد . [اللسان : مادة (بأس)] .

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التي خلقها لنا ، والتي جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام[2] الحياة ؛ فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في الوجود ، وتعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه - كما قلنا من قبل - لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً[3] ، يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع .

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم . فيقول الحق سبحانه هنا :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ولو نظرت إلى المعنى

---

(١) منازل القمر : مواضع تحركه ، أي : مداره حول الأرض ، ومواقعه بين الشمس والأرض ، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التي نراه عليها . قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس] ، وقال سبحانه : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۝٩٦ ﴾ [الأنعام] .

(٢) قوام كل شيء : أي : ما يقوم به ، وعماد كل شيء ونظامه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ۝٥ ﴾ [النساء] أي : تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها .

(٣) الفرات : الماء الشديد العذوبة . يقال : ماء فرات ، ونهر فرات . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ۝٥٣ ﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ۝١٢ ﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧ ﴾ [المرسلات] . [المعجم الوسيط : مادة (فرت)] .

السطحى فى الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطى نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطى ضياء ، والقمر يعطى نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها.

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضىء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه.

إذن : القمر مضىء بغيره ، أما الشمس فهى تضىء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءً﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً . وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه : حياض ، ومثل روض - جمعه : رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجىء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعانى كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها[1] .

---

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطيف ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المشتقة من الضياء ، وهذه إشارة لأسرار الله فى كونه .

إذن : فـ «ضياء» تعبر عن تعدد الألوان المخزونة فى ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح فى المعنى العام.

ولذلك كان القرآن يتزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التى لا تعرف المعانى العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إننى أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هى حمرة فى الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهى لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون الشمس فى أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهى تشع فى الكون ولا تصل إلينا.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ؛ وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (1) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا (2) وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان]

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس.

---

(1) من معانى البروج : الكواكب والنجوم والقصور ، وبروج (أبراج) الفلك وهى اثنا عشر برجاً تبدأ بالحمل . قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج] وقال : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴿١٦﴾﴾ [الحجر] ، وقال : ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (برج)].

(2) السراج : المصباح الزاهر الذى يُسرج بالليل ، ووُصفت الشمس بالسراج ؛ لأنها سراج النهار ، أى : مصباحه ومصدر نوره . قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ] ، وقال : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (سرج)].

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ، وكلمة ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ تعود في ظاهر الأمر إلى القمر . لكن في الواقع أن الشمس لها منازل [1] أيضاً ، وقال الحق : ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه «الجعل» [2] ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً.

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين ؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين ؛ للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب.

وفي العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان [3] ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج [4] ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة [5] ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر.

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد] ، وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس] ، وقال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن].

(٢) جعل : خلق أو صيَّر . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ]. [اللسان : مادة (جعل)].

(٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهر تسع وعشرون ، فإذا رأيتم الهلال فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطروا ، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٨٠).

(٤) شهور الحج هي : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . قال ابن عمر رضي الله عنهما : أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . [فقه السنة : ١/ ٤٦٢]. وقيل شهر ذي الحجة بتمامه .

(٥) العدة : مأخوذة من العد والإحصاء ، أي : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء . وهي أنواع بحسب حال المرأة ، فإن كانت زوجة غير مدخول بها ، فلها حالتان ، إذا طُلِّقت فلا عدة عليها ، أما إن مات زوجها فعليها العدة أربعة أشهر وعشراً . أما إن كان مدخولاً بها ، فإما أن تكون ممن يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة قروء ، وإما أن تكون ممن لا يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة أشهر . أما عدة الحامل فهي بوضع الحمل ، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها . انظر تفصيل هذا في فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٣٤١ - ٣٥٠) .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس]

و«العرجون» هو ما نسميه «الســباطة»[2] التى تحمل «شماريخ» البلح ، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التى يكنسون بها بيوت البادية والريف ، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التى عاش فيها العربى القديم .

وفى أول كل شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر ، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة للسنة ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلالياً . أما اليوم فيقدر بالشمس ؛ لذلك فهى تدخل فى تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل «الجعل» لأمرين : مجعول الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

والحق - كما أوضحنا - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . وحين نتأمل مسار الأفلاك[3] ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا فى ظاهرتى

(١) العرجون : العذق اليابس أو الغصن الجاف ، قال ابن عباس : العرجون هو أصل العذق وهو العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى . والقمر فى آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون . [اللسان : مادة (عرجن)] .

(٢) المراد بالسباطة : جريد النخل اليابس .

(٣) الفلك : مدار النجوم . وفَلْكُ كل شىء : مُسْتداره ومُعْظمه . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (فلك)] .

الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور نجدها عندهم غاية في الدقة.

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل.

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهي أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب - إذن- يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل.

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً في القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ،بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها.

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر - إذن ؟

ونقول : هل خلق اللهُ الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،

ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتى النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، ويأتى الليل للقسم الذى كان نهاراً .

إذن : فالحق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق:

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... (٦٢) ﴾ [الفرقان]

ثم يأتى التعليل:

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فالليل خلفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما - مدّة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن يأتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فصَّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [(1)] .

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

وهكذا بيَّن الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير.

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(1) فصل عن المكان من باب ضرب : جاوزه قال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] والفصل : التمييز . ويوم الفصل : يوم القيامة . وفصل الخطاب : القول الصائب المميز بين الحق والباطل ، قال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] . أي : مبينات ومنه قوله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] - القاموس القويم : ص ٨٢ ، ٨٣ .

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النَّفس ، ونَفْس ، ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء في الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التي عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التي تحيط بجوانب كل الأشياء هي التي تثبتها ، وإنْ تخلخل الهواء في أي ناحية حول تلك المباني والجبال فهي تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف[1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّة خالق ، بدقة إله حكيم ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق :

﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[2] ... (٢٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ١ : ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) قال ابن السكيت والأزهري : لواقح أي : حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرّفه ، ثم تستدرّه . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف] . [اللسان : مادة (لقح) . . بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح نفى ذلك العقاب ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الحاقة]

ومثل قوله :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾

[الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة فتدهم [3] ما فى طريقها.

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصّل لذكر كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صرٌّ وصَرْصَرٌ : شديدة البرد والصوت . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران]. وصَرَّ الطائر : صاح ، وصَرَّ الباب يصرّ صريراً : أصدر صوتاً عالياً ممتداً ، والصَّرَّة : الضجة والصيحة والشدة من الكرب والحرب وغيرهما . [اللسان : مادة (صرر)].
وعاتية : شديدة جداً . والعاتى : الجبّار . [اللسان : مادة (عتا)].

(٢) العارض : السَّحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [اللسان : مادة (عرض)].

(٣) تدهم : تهجم بشدة حتى تغشى مَنْ وما فى طريقها . [اللسان : مادة (دهم) بتصرف].

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ؛ بل هو كتاب منهج ؛ ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهي التي تفيد الشك في قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتي من العلم ليس بقادر أن يُحصي نعم الله في الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إن» وهي في مقام الشك.

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدّ يقتضي التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» واحدة ، وإذا استقصيتَ ما في النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التي لا تُحصَى.

وينهي الحق الآية بقوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثاني على المعجزة الدالة على صدق الرسول [1] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة في الوجود [2] الدالة على عظمة الله سبحانه.

وهذه الآيات خلقها الله لتُلفت إلى مُكَوِّن [3] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكَوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان في انسجام مع الكون الذي أنشيء

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (١١٨) ﴾ [البقرة] ونحو قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ [الأنعام].

(٢) وهي الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضي مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة الانفعال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنفعل بها ، فإذا انفعلت اخترت المكون توحيداً بحب وعبادة بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمعية الله.

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينقّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون في آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ؛ فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب ، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[1] (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك :

(١) أعرض يُعْرِضُ إعراضاً ، فهو مُعْرِضٌ ، والجمع : مُعْرِضون . أعرض عن الشيء : إذا ولاه ظهره وابتعد عنه . [اللسان : مادة (عرض) - بتصرف].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمني طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً … فأخبرَهُ بما فَعَلَ المشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمني هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر:

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فأنْظِمَها … عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمِي

وهذا غير ممكن.

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك [1].

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذي يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هي أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

---

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاه ، من باب نصر - يرجوه رجواً ورجاء : ترقبه مع إرادته إياه وسروره به ، أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، قال تعالى : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ۝٧﴾ [يونس] . أي : لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجا : الناحية وجمعه أرجاء . قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۝١٧﴾ [الحاقة] .